الضدفات والغواص

للأستاذ جمال محمد أحمد

أكثرنا عالج قضية اللغة العربية فى الصحافة اليومية ، وقتا ما من أيام حياته ، بعضنا كتب الكتب ، والعهد غير بعيد بالمرحوم عبداللطيف حمزة . وطيب ونافع هذا ، لنفض فيه ما بلغنا الغاية كلها بعد. لكنى أدعو إلى ؛ أن نعطى قسطا من بالنا للشهريات والفصليات والحوليات : أزعم أن هنا قضية تستأهل الجهد ، على مقدار لغة الصحافة اليومية . أنا أقول أكثر . تكتب هذه الصحف بعربية يستغلق المعنى معها ، وفى بعض الأحايين لا يسلم لك بعض الكاتبين فيها حذقة فى فروع المعرفة التى راحوا لها جامعات أوربا والولايات المتحدة ، وما هم كذلك فى الذى كان من أمر اللغة العربية . يسوقون لنا آراء أهانها الاستعمال ، وأذلها الابتذال بلغة مستفهة ثرثارة . بعضهم يريد ليأخذ بيدنا للجديد فى العلوم والآداب والفنون، فلا نفلح فى أن نفك طلاسم مايقولون، لا نعرف بأى لحن يحبون أن يرودوا بنا الطريق . لو أردت لمضيت أحصى الذى أقلقنى هذه السنوات العشر التى كثرت عندنا فيها الصحف التى إليها أشير .

قلتى على اللغة العربية، من هذه الشهريات والفصليات والحوليات والأسبوعيات فى الصحف اليومية ، متعددة أسبابه ، وترتبط أحيانا بعضها ببعض. إنها تكتب فى «القضايا العامة» كما يقولون، وللمستنيرين من خواص العوام : هؤلاء على قلة أعدادهم الآن هم الأعلون أصحاب القرار وهيئة المستقبل . كتابات هذه الصحف تمسهم على النحو الذى تمس الصحافة اليومية زيدا وعبيدا ، لا يسألون كثيرا فى خاطرهم أن بيد الخواص، أهل الذكر ، هؤلاء حياتهم الأفضل ، الأقل غلظة، وإن كانوا يتساءلون حين يرون غلوا فى الإطراء أو زلفى للضلال .مثلهم ومثل المستنيرين على زماننا مثل الناس مع الشيخ حافظ القرآن فى زمان مضى ، إليه يطمئنون ويرجعون .

وبديعة تروق العين هذه الصحف . تأخذ بقسط طيب من علوم وفنون الطباعة الحديثة، والتصو والرسم والإخراج ومزج الألوان ،

(*) ألقى هذا البحث فى الجلسة التاسعة من مؤتمر المجمع فى دورته التاسعة والأربعين (الأربعاء ١٧ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٣ هـ الموافق ٢ من مارس ١٩٨٣ م) .

ولا ترهق — كثيرا — طائفة الناس التي تصدر لهم خواص العوام ، الجماعة المستنيرة بيننا . هؤلاء لا يثنيهم رهق مالى ، فلكل صحيفة من هذه الصحف ، ممول كفاها كل شئ «يهمها» : حكومة ، جماعة ، واحد من أهل الثراء . الولاة على أيامنا كثر . سبب أخير من أسباب القلق — لا آخر — أذكره : تذيع هذه الصحف ، أن القائمين على شئونها حذقة ، دربوا على وسائل الإغراء فى الولايات المتحدة وأوربا ، مثلا يدعون واحدا أو اثنين من أعلام الفكر العربى الذين وجدوا سبيلهم لعقول وقلوب جمهرة الناس والخواص ؛ لأنهم نذروا ذواتهم للفكر سنين — ليتركوهم يكتبون ، وباسمهم تروج هذه الصحف . جنب هؤلاء الأعلام أقلام لا تفيد الفكر العربى كثيرا ، يحسنون اللغة العربية . بعض هذه الكتابات تهجر كلاما غير بعيد أن يوحى لقارئه — إن كان ممن لا يحذرون — أن العربية عسرة . إنه أمام « قضايا عامة » كما قال له الدعاة لهذه الصحف ، وما كان ينبغى لها أن تستعصى عليه وهو الذى يحياها ويعرف أطرافا منها لو لم تكن هذه اللغة العسيرة العاجزة عن عب الذى يجد فى العلوم والآداب كل صباح . ينصرف عنها قانطا للتافه الذى يسليه عن الجد الجهم الذى لا يستطيعه . خطيئة أن يصرف المستنيرون أشباه هذا الذى افترضته عن الفكر الجديد ؛ لأنه يجيئهم مخلوط اللغة ، قلق المفردات متعثر الأسلوب :

تنفق هذه الصحف جهدا لنعرف قدرا علوم وفنون هذا العصر : نحمد لهم هذا ونثنى عليه ، ونعرف أن علوم وفنون هذا العصر تشققت وأضحت أشطارا ، لكل شطر من الجمع الكثير مفردات جديدة ، تشق على اللغات التى يتكلم بها الناس فى أوطان هذه العلوم الجديدة والفنون والآداب ، وكل هذه الأوطان فى أوربا الآن بشقيها الشرقى والغربى والولايات المتحدة ، وهى أوطان تعينها الجذور الإغريقية وأحيانا اللاتينية والسلافية ، فلا تلقى مشقة يستحيل عليها أن تعلوها ، تخترع المفردات الجديدة والصياغات والأساليب ، تصور بها العقل الجديد والرؤية الجديدة . نعترف للكاتبين العالمين فى هذه الصحف بهذا : لكنا نكره أن يذهبوا المذاهب فى تمزيق اللغة : إذن يمزقون عقلنا العربى ، تخذل اللغة الفكر : إن لم نقل لهم هذا بصوت يسمعونه ويتدبرون الذى يقول ، فما هذه أول مرة يلتقى العقل العربى بالعقول الأخرى تعينه لغته الكثيرة الصدفات . إنا لا نعرف الذى كان يقوله الآخرون عن كتابات شيخنا العطار ومبارك والطهطاوى على قسوة ذاك الذى يكون بين المعاصرين من منافرة ، لكن الذى نراه اليوم — فى أضعاف كلامهم حين نقرأه — أنهم كانوا استجابة بليغة لحاجات فى نفوسهم ونفوس الناس ؛ لذا ، ما حاجهم أحد فى

رؤيتهم ، لكنا نريد لنحج هداة هذه الأيام ، بالعطف كله والحب :

وهذه والله تبعة . من أجدر بحملها أكثر من أخلاف حفنى ناصف وإخوته هنا ، وأخلاف الأمير أرسلان فى الشام، والكرملى فى العراق ،واليازجى فى لبنان،والسراج فى السودان ؟ هذا اللقاء بين اللغة العربية وعلوم العصر ما عدا أن يكون حلقة فى سلسلة اللقاءات ، بدأت فى القرن الثامن على أيام هارون وشارلمان ،والعربية كفاء لها الآن كما كانت كفاء لها آنذاك ،كل الذى يحيق بنا من قهر وخيبات ، كان قدر منه غير قليل يحيق بالأقدمين وما قعد بهم الذهن الخالق المبدع . بعيد ألا تكون حالنا المقهورة بضعا من حالهم . أجئنا على رعاية الكاتبين العلماء فى أسبوعيات الثقافة فى الصحف اليومية ،فى الشهريات وفى الحوليات؟ ولن نستطيع هذه الرعاية إن لم نأخذ بقسوة بعض ما يتمتمون به ،يغمغمون ، يصرفون المستنيرين عن الجديد فى رأيهم، بلغتهم التى لا تبين ،ولا يذيعون فى الذى يكتبون مفردات المعاجم التى صدرت عن المجمع . يستحيل على المجمع — شأنه شأن أى مجمع فى أى مكان — أن يرفد لغة العلوم والآداب والفنون بالذى ينحتون ويشتقون ويجيزون ويترجمون ويعربون ويروحون من بعد يذيعون : لحان المجمع ما خذلت أهدافها . فقط انظر للمعاجم التى صدرت عنه، وقابل الذى تراه فيها بالذى يكتب الكاتبون : لا أعرف واحدا من هؤلاء انتفع كثيرا بالذى جهدتم فى اللجان — ياأخى مذكور — له ، ولا أعرف واحدا — أى واحد — أعطى العربية المعاصرة كلمة من صنعه ، ودأب اللغات الحية أن تنمو بأقلام أهلها القادرين ،ولا أعرف واحدا — أى واحد — أعاد للحياة كلمة غابت زمانا ، حين غاب فكرها الذى فى ثناياها تحمله ، كالذى يصنع كتاب أوربا وكتاب الأمريكتين ، فهم يعيدون للحياة كلمات أنسيها الناس ، بعضهم يخترع المواقف فى رواياته اختراعا ، لا تعبر عنها غير تلكم المفردات ، جديرة بالموقف ، جديرة بحياة ثانية إن كانت قد أنسيت ، أو نشأة أولى ، إن كان مما أنشأ الكاتب .

ستذكرون «أنتونى بيرجس» فى «قوى أرضية» حين أقول هـذا كم من المفردات يبعث حيا ، وكم من الصيغ اختراعا يخترع ، وكان قريبا من هذا الذى يفعل الروائى بيرجس ، فعل لطفى السيد على أيامه ، ماقنع للعربية أن تعجز عن الآراء القادمة على أيامه ، ترجم كلمة «لبرال» بالحريين ، أبى كلمة الأحرار ، وكانت تجرى على ألسنة الخطباء وأقلام الكاتبين : كان يكتب عن الحريين لا الأحرار ، وما قدر لهذه اللفظة الأصح أن تغالب أختها السارية . وستذكرون كم سعى لطفى ليعيد للعربية قدراتها بأسلوبه الذى كان به يكتب ودعواته المباشرة للغة صحيحة دقيقة يسيرة .

نحن الذين ربينا على رسالة الزيات وثقافة أحمد أمين ، نأسى على الذين فى عمرنا حينذاك . يحارون فى الذى تصدر المطابع من صحف أشتات فى الوجهة، منابعها تتنافر لا تلتقى ، الفكر فيها والرؤى تبعا لهذا، لا جامعة بينها تجمع العقول والأفئدة . لغاتها كذلك لا تنهل من مورد . لكل صحيفة مورد ،وتقول إنه يتفق والذى تعالج من «قضايا عامة» . لا يحب أحدنا أن يسرف ويقول إن كل فرد من شبابنا هذه الأيام أمة كان للرسالة منحى وأسلوب ، وللثقافة كذاك ، وكانتا مع ذاك تصنعان فكرا فى الوطن العربى متقاربا، يفهم بعضهم عن بعض . الآن تشتت الفكر ، لا تجد الذى يربط بين الشباب ، إلا حين يلتقون : أطباء ومهندسين وبياطرة ، ويعود الشتات حين يفرغون من حديث المهنة . أمن أجل هذا يارب عزف الأكثرون - ذكاء منهم - عن الذى فى أسبوعيات وفصليات وحوليات زمانهم لنظائرها التى تصدر فى عواصم أوربا ؟ أعرف يقينا أن كثيرين ممن تتيسر لهم فى البيت روايات «دكنز» و«بلزاك» يؤثرونها على الذى يجدون فى هذه الصحف ، إن ألح الآباء على قراءات فى العربية، يؤثرون الروائع ، المعاصرة ، حديث الأربعاء وثلاثية نجيب والعبقريات .

أنا لا أسوق هذا الذى كان من أمرنا أباهى الذين أتوا بعد الرسالة والثقافة : أسوقه لعل الذكرى تنفع المؤمنين . أذكرنا جماعات صغيرة تذرع الطريق بين «كلية غردون» ، حيث «جامعة الخرطوم» الآن، على النيل الأزرق ، لمحطة السكة الحديد ، صوب الجنوب حيث هى الآن أميالا من النيل بعيدة، نرقب قطار الشمال، هناك يجيئنا بالرسالة والثقافة والبلاغ والجهاد . يحمل طرودها «زكى بطليموس» على عربة نتابعها معه . يصل بها حانوته فى المحطة الوسطى أميالا أخرى من محطة السكة الحديد وسط المدينة حيث يلتقى عندها ، ترام أم درمان من غرب النيل الأبيض بترام الخرطوم بحرى ، صوب الشمال من النيل الأزرق، وكان بطليموس رجل خير ، نكاد من فرط خيره أن نراه جميلا رغم بطنه الأثجل[1] وعنقه الأسطع[2] وقصره . تكاد تخفيه عنا ما فى دكانه من حلاوة وتبغ ودخان ؛ لا يلح على واحد منا إن لم يكن يملك ذلك اليوم ثمن كل الذى يريده . وما كان فى هذه الصحف ما يجهدنا ، حتى تلكم اللغة الدقيقة التى كان يكتب بها عبد القادر حمزة فى مواضيع عصية كقاعدة الذهب التى اضطرت إلى هجرها أوربا . ما كنا ننشد البلاغة عنده ، كما ننشدها عند دياب فى جهاده، وعند الزيات، الذى كان بعضنا يحفظ بعض افتتاحيته، كتلك التى كتب عن تركيا أتاتورك أو التى كتب عن ابنه رجاء . ما كان ينشد أحدنا هذا عند عبد القادر حمزة، لكنه كان يقرأ عموديه مترسلا مأخوذا بمنطقه ،

(١) الأثجل : عظيم البطن .

(٢) الأسطع : طويل العنق .

لا تفقه الكثير منه ، إنه خارج تجاربك ، لكنه يمضى بك ، لا يضجرك بعلمه الأوفر .

لن تجد مكانا لصحف هذا الزمان فى قلوب أبناء هذا الزمان، وهى قلوب وعقول أكثر علما ودراية من عقولنا ذاك الزمان، فى أعمارهم الآن . يشفع لها كما قلت أنها تريد لتأخذ بيد العقل العربى للجديد الآن فى موكب الحضارة البشرية ، كما فعل الأولون أول القرن ووسطه ، كما فعل العطار فى الأول وطه فى الوسط ، بعبارة أوضح ، أزعم أنهم لا يحققون كثيرا مما يريدون ، لا أغالى ، إذا قلت : إنهم فى بعض الأحيان يؤذون .

هذه دعوى عريضة ، سأسوق بيناتها من نماذج عكفت عليها أسبوعى الماضى حين تسلمت دعوة أخى وأخيكم المهدى ، أمينا العام، ولن تكون بالطبع غير نماذج تشير للذى أدعو إلى أن نبين جزءا منها، نبحث عن سبيل أرشد من هذه السبيل التى يطرق الكاتبون العلماء الآن فقط . أكبر من اللوم يقع عليهم . ما عندى كثير . ما آخذه على الشباب أنهم يلهثون وراء المعرفة ، كالذى لهثنا نحن فى الخرطوم زمان قطر الشمال : يأتون الآن جماعات من مدن السودان الصغيرة وقراها ، يرجون المجلس القومى للآداب والفنون أن يعينهم على إنشاء المكتبات فى أنديتهم ، وعلى إرسال من يحدثهم فى الآداب والفنون من أساتذة وكتاب ، ويقول لى إخوتى ، إن هذه هى عين حال الشباب عندهم ، لا تختلف .

لن تكون كثيرة نماذجى التى أختار ، سيحدها جهلى بالقضايا التى تتصل بالحديد المذهل فى العلوم . تخرج بشرا من نوع فى زجاجة ، وآخر سويا من أنبوبة ، وورود بواسل الرجال والنساء السموات ، تهز إيماننا بالذى عرف عن السبع الطباق . يسعى بعضنا يريد ليبقى علينا ذلك الإيمان هذه وغيرها — من شئون الحديد — جوف الحديد ، لن تمسها نماذجى . تمس نماذجى الإنسانيات ، كما يعبرون هذه السنين ، يترجمون كلمة ما فى تاريخ فكرنا بما يقابلها من جذور فى تاريخ نشأتها ، بمظهرها الحديث ، يحسبونها تتصل بالإنسان وما هى كذلك . واحدة من التعابير التى يحب الواحد للخواص — الذين يتصدون لتاريخ فكرنا وفكر أوربا — أن يعوا أنهما تاريخان لا يلتقيان فى كثير . لكل شريعة وقصد ، وللغة التى تعبر عنهما مذاق ونحو وتاريخ .

الحديث الجديد عن الجديد يدور عن قضايا :

١ — الاستشراق .

٢ — التكنولوجيا .

٣ — السياسة .

٤ — التراث والأصالة .

٥ — التطور والإنسان .

وهذه مختارات رابطتها الواثقة فى ذهنى أنى رأيتها مرات قبل أن أعزم أن أدير الحديث حولها . وأراها الآن مرصودة فى

مفكرتى كلما انعمت فيها النظر : ما كنت غاليا حين زعمت لنفسى ، ثم لأصفيائى من بعد ، أن اللغة تحمل القضايا مخلوطة شائهة لا تصلنا. نحن الذين نرقبها والأنفاس منا برقاب بعضها ممسكة لأن لغتها شائهة.

الاستشراق هذه الأيام موضع حوار ، ولا أظنه يستعصى على كثيرين معناه ، لكن واحدا من الكاتبين العلماء أخذ على نفسه أن يعلمنا فكتب بحثا طوله ١٢٫٠٠٠ كلمة وأوصانا بخمسة عشر كتابا فى الفرنسية والإنجليزية ، أعانته على عوننا فى حديث «عصب الاستشراق» قال فى بدئه إنه سيرينا «صورة أدق للاستشراق» فتبعناه ، لنعلم مالم نكن نعلم ، قال : « ليس الاستشراق إلا عملية توزيع لإدراك سياسى جيد على نصوص فنية ، أكاديمية ، اقتصادية ، فوسيولوجية ، تاريخية أو نحوية . فالاستشراق تفصيل لا نهاية له ، لاللتميز المبدئى الثنائى : غرب ، شرق ، فحسب بل لسلسلة من المصالح ...» أنا أعرف ياسادتى أنا أمام خذ ، لكنى عاجز عن أن أقاوم تذكيركم بالتوحيدى يصور لأهل زمانه الصاحب بن عباد يتفيقه — صورة تحاور المتصوفة : روى عنه قال : «ورأيته يناظر أبا الفرج البغدادى الصوفى وكان فى أذنه وقر من وساوس الصوفية وخطراتهم فقال له : ياأبا الفرج إذا كانت البينونة مشعورا بها فى عرصة الحق حيث لا عبارة للخلق ، ولا أمان للجل والدق ، بطنت وسائل المعرفة بحقائق المراد ، واشتبهت أعلام الحال فى تثبيت الإشارة وبقيت العبارة على ألف الألف وعادة المتألف ، فأجابه أبو الفرج : لا ثبات لمناسب البينونة . نهايات الاتحاد لزوال شرائط رسوم الخلق عند تصافى الأرواح بحقائق الحق ، قال ابن عباد : ما أنكر تلاشى المناسب فى نهايات الاتحاد إذا سطعت أنوار الحقيقة بالاتقاد وإنما جررت الكلام إلى غاية تزلق فيها الأفهام ولو لا الحال التى امتحنى الحق بها ، وسحبنى على غرائبها وعجائبها فى عرض صوادقها وكواذبها مما هو مردود إليه ، ومتوكل فيه عليه لشققت معك جلباب صدر قد حشى ودائع ، وفتحت لك أبواب خزائن قد جمعت فيها بدائع ، ولكنى بما ترانى أذبذب عليه مأخوذ ، وبما تسمعنى أدندن حوله مجذوذ وإلى الله المشتكى فهو الغاية والمنتهى » .

عفــوكم سادتى ، ما أطلت لأنكم لم تقفوا عند هذه الصورة فى الإمتاع والمؤانسة ، لكنى ما عرفت أين أقف حتى أتيت للملاذ الأول . لذت به . هو «الغاية والمنتهى» ولا أحب لنا أن ننسى هذه الصورة فهى جديرة بالذى نقلت عن حديث «عصب الاستشراق» وبالذى سأقف عنده فى الأحاديث الأخر .

والتكنولوجيا كالاستشراق تحظى بعناية تستحقها بالطبع ، وأحب لنا أن نقف عند «دراسة قدمت لمؤتمر غرف التجارة والزراعة والصناعة للبلاد العربية» قبل سنتين .

تتحدث الدراسة عن « نقل التكنولوجيا فى الوطن العربى : مفهومه ومشاكله وتوجيهه » وما عندى شك فى أن صاحب الدراسة يعرف الذى درسه فى معاهد أوربا والولايات المتحدة ، ولايعرف الطريق للعقول والقلوب التى يريد لهـا أن تنتفع بعلمه وتعمل به فتجد نفسها بعدقليل مع الحديد ــ جوف الحديد ــ فى موكب الحضارة البشرية . كتب نحو ٧٠٠٠ كلمة ، ورسم أربعة عشرة جدولا ، ورسم كثيرا ، وأتانا بجداول أرقام كثيرة .

وأوصانا بكتب نقرؤها ، اختلط على حسابها . ما فى وسعك أن تحصيها للخلط بينها وبين غيرها من هذه الجداول وأرقامها والرسوم . تلك عقبة أخرى فى العوائق بين العلماء الكاتبين من المحدثين . ونحن بصدد وسيلتهم إلينا ، بصدد اللغة ، مفرداتها وأسلوبها ، يبدؤنا الدارس لهذه القضية التى قلت من حقها أن تشغل البال ، يقول :

« على الرغم من أن آدم سميث وضع فى القرن الثامن عشر تصورا ديناميكيا لدور التكنولوجيا فى إحداث التطور التقنى فا ز ل العديد من المشتغلين بهذه القضية ينظرون لأمر نقل التكنولوجيا ، كما يجرى اليوم ، باعتباره سلعة مقايضة عادية ، ضمن فسيفساء السلع العديدة التى تتحرك بها التجارة الدولية ويحكمها تفسير الاقتصاديين السويديين (هكشر ــ أو هليه) لمبدأ الأفضلية النسبية وهو مبدأ أرسى قواعده ، بعد آدم سميث ، الاقتصادى الإنجليزى ريكاردو فى القرن التاسع عشر . وتبقى هذه النظرة الاقتصادية سائدة رغم تقلص نسب التعادل فى عمليات نقل التكنولوجيا واتجاه الموردين إلى بيع الدراية الفنية إلى أن توصل المرامى البعيدة من عملية النقل بأهداف المدى القريب » .

عفوكم ثانية . نقلت فقرة كاملة من مدخل الحديث ، وقرأت الفقرة على مهل ، ما وقفت عند «لا تقربوا الصلاة» ، أتممت ، ما أعجلتكم عن الذى قال الكاتب العالم . ربما فقه أحدكم مالم أفقهه ، والله لا أقول هذا تواضعا ، ما عندى ما أتواضع له فى ، وسعى أن أمضى فى حديث الكاتب عن « مشاكل نقل التكنولوجيا » . لن يفقه عنه حتى العارفون . نسمع من حين لحين أن أهل المهنة الواحدة والحرفة لا يكتبون للناس كلهم ، يكتبون لبعض ، وأخاف ألا يكون صحيحا حين نسعى لنطبق هذه الفكرة الأوربية على أهل المهنة الواحدة عندنا والحرفة . يحدثنا صاحب هذه الدراسة ، ويحدث بالطبع من يعرفون ، وأخاف ألا يصل لغاية من هاتين الغايتين ، يقـول عن مفهوم النمو الاقتصادى ومعنى التنمية المرتكزة على التكنولوجيا » :

« كانت الفلسفة الاقتصادية السائدة ومازالت فى بعض الدوائر ، تنظر إلى قضية التنمية باعتبارها عملية انتشار وتكوين

ثم من خلال ادخار من الدخل القومى المنتج على هيئة تكوين رأس المال الثابت مع زيادة فى المخزون وفى فائض ميزان التجارة الخارجية، يؤدى بدوره إلى زيادة الناتج المحلى الإجمالى فى المستقبل . وجاء « شومبتر » يصحح هذا المفهوم ، وقال : إن مثل هذا الاكتناز يشكل نموا اقتصاديا وليس تنمية ، وإن إحداث مثل هذه التنيمة يتطلب زيادة فى الكفاءة الإنتاجية .

لن أكمل الفقرة ، لأحسب أنها تزيدك علما عن النمو الاقتصادى . وسائر الفقرات من هذا النهج . ثرثار عقيم ، حتى حين يعفيك من مفرداته الأوربية التى يحسب أنها تشرح كلامه . إن التكنولوجيا ليست سلعة قابلة للتبادل ؛ إذ هى قبل أى شئ آخر علم وخبرة فى فنون الإنتاج الصناعى والزراعى الحديث ، من هنا يأتى الالتباس فى أذهان الكثيرين بأن التكنولوجيا فى الجوهر نشاط علمى تنظيمى ، ينقل المجتمع من أساليب إنتاج تقليدى إلى أساليب إنتاج حديثه ولا أهمية هنا للشكل الخارجى القانونى لهذا النشاط من ناحية النظام السياسى الحضارى به فى المجتمع ، فسواء كان هذ النظام رأسماليا أم اشتراكيا أم مبنيا على قيم التراث الخصوصية ، فالمهم هو جوهر الممارسة من ناحية تكريسها فى أمور العلم والتنظيم الحديثة . هذا كاتب آخر فى الاقتصاد لا يرهقك بمفردات وعبارات أوربية تقفز لعينك فى كل سطر ، لكنه لا يكاد يقترب من الوضوح الذى عالج به الأمر « بهاء الدين » قبل أسابيع مضت فى أربعة أو خمسة من أعمدته فى الأهرام . أقعد صاحبنا ذاك هزال الفكرة فى ذهنه . أعان « بهاء الدين » ذهنه الأصفى . راح للبحر صاحبنا ما سأل الغواص عن صدفاته .

وحاذر أخى أن تظن الكتاب فى هذه الأسبوعيات — التى أدير الحديث حول الذى تكتب — والشهريات والفصليات لا يحتاجون دفعنا إياهم دفعا أن يروحوا إلى البحر يسألون الغواص عن صدفاته فى شئون التاريخ والسياسة ، لأنا من سادة هذا الفرع من فروع المعرفة والزمان طفل ، لا نحتاج إلا أن نبعث بعض مفرداتنا فى هذه الشئون وبعض التعابير من ناحية وإلا فوقفات دقيقات عند الذى ينشئه الأوربيون هذه الأيام منها ، بعضها لا كلها ، بعضها ذاك الذى يجمعنا وإياهم فى الأصول البشرية القديمة لا الذى يتصل بتاريخهم . نقف عندهم ونتخذه غذاء لعقلنا العربى يوقظه من خَدَره . وخِدْره ، لا أعتذر حين أقول ثانية بين تاريخنا وتاريخهم خلاف ، تنمو لغاتهم ، تلقى الجديد عليها ، على نحو لا يصلح دائما لنا ، نأخذه غير ناقدين إياه لأنه ينبع ذهننا وهو غير ذهنهم . اللهم لا بغضاء ولا حقد . جهد منا لنكون نحن نحن ، ننمو على نسق . نبدعه نحن من قديمنا إن تيسر ، ومن

جديدنا إذ كدحنا أكثر وانتفعنا بالذى نملك من مواهب . ما كنت لأقول هذه الأوليات لو لم تكن هذه الأقلام الكدودة الحيرة تقول لنا فى الذى تقول أشباه ما قال صاحب، له فى قلبى مكان . يقول فى حديث له أسماه « احتجاب مصر وإطلالة على المستقبل »، وهو مصرى على اسم مصر حريص ، يقول : لقد اجتمعت النزعة (الأيدولوجية) من جميع الأشكال فى عصرنا الحديث على تزييف وتشويه وضع مشكلتنا القومية ؛ فمنذ الجزء الأخير من القرن التاسع كان ينظر دائما إلى وضع مشكلة العرب فى التاريخ فى ضوء الديالكتيك بين مختلف الحضارات فى الشرق والغرب . وقد كان ذلك هو معنى الحملة المضادة للصليبيين بعشرة قرون لمملكة القدس التى أنشئت فى قلب المشرق العربى ، لمنع أى إمكانية لتوحيد أراضيه حول مصر فى عهد صلاح الدين ، وقد كان ذلك ولا يزال هو معنى الاستعمار والإمبريالية التقليدية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وهذا قبل كل شىء هو معنى الإمبريالية الصهيونية العنصرية والتوسعية والعسكرية فى منطقتنا وفى أيامنا هذه ، ويمكن القول بالطبع أن « الامبريالية » — باعتبارها مقومة نظرية — ترتبط بالتجارب الحياتية لمجتمعات دول مثل فيتنام وموزمبيق وشيلى والبرازيل ، بطريقة مماثلة . وهى ترتبط دون شك وفى كثير من النواحى ، ولكن فى إطار نظرى بحت ، المهم هو قراءة تاريخ تحول العالم منذ نزوع الغرب إلى السيطرة فى القرن الخامس عشر إلى إيامنا هذه بالأبعاد العامة والواسعة لهذا التحول ، ومن ثم يصبح من الأيسر ، دون شك فهم وإدراك دلالة المنطقة الحضارية العربية الإسلامية فى ديالكتيك الحضارات ، باعتبارها عملية ديالكتية مستمرة ذات أبعاد تاريخية وشاملة ، وقد تكون صاحبة التأثير التشكيلى الأقوى فى تركيب ميزان القوى فى المدى الطويل لعصرنا الحديث .

سيدى ، نقلت لك فقرة كاملة لترى معى أن التوحيدى حين أغلظ على ابن عباد، لو بعث حيا اليوم، لما احتاج أن يجهد قلمه، يخترع تلكم العبارة التى أتينا عليها قبل حين. ولست معنيا بتهافت الفكرة . نقرأ تاريخ تحول العالم من القرن الخامس عشر إلى يومنا هذا لندرك ونفهم دلالة المنطقة الحضارية فى ديالكتات الحضارات بعد أن قرأنا نحو ٨٠٠٠ كلمة فى بحثه الذى استند على ١٢ مصدراً يعرفنا بها تعريفا كلما وقف عند واحد منها ، وبعضها من تصنيفه هو بالعربية أحيانا وبالإنجليزية أحيانا أخرى وبالفرنسية أحيانا ثالثة .

دعنى وأنا بصدد الكتابة باللغات الأوربية أقول لك إن صاحب الحديث عن احتجاب مصر كتبه بإنجليزية تنافس هذه العربية .

أنا عاشرت هذه اللغة سنين وجدتنى لا أفقه الذى يريدصديقى الطيب بهذهالعبارة : إنى آذن غير فطن . إن كنت ذالك ، فأين الفطن الذى يفهم عن صديقى مساق فكرة تحمل له مفردات تكاد لا تنطق وصياغة تهتز اهتزاز من به دساتير : « زار » . تلمح بضعا هنا وبضعا هناك بعد ثانية . ولا تلقى الأشطار . تراها وحدة تنبئ .

وقبل أن أروح أضع بين يديك نماذجى الأخر التى وعدت ، أحب لنا أن نقف لحظة مع الترجمة ، لأن بعض هذهالصحف أوقفت نفسها عليها . عرفت بحق أنا كغيرنا من الناس ، نحتاجها كل عصر ودهر نطل بها على الآخرين ، كما أطلت من قبل أيامنا الزهر فى عهد هارون والمأمون ، وأطلوا علينا ينقلونعنا ابن سينا وابن حزم والفارابى . طيب هذا . طيب أن ينقلوا لنا الذى يرى الآخرون .

لكن تعالوا معى لترجمة فى صحيفة من صحف أيامنا شرعت منذ سنتين تترجم لنا ما تختار من كتابات فى صحف أوربا وأمريكا . سترون معى أن العلماء الكاتبين الذين يترجمون لهذه الصحف لايعرفون غير ألفاظ مسخوطة فىالعربية . وأسوق البينة على ما أقول مرة ثانية ، ولا يعنينى ما يقولون ، وإن كنت أرى أنهم حين يتحدثون إلينا لا يقضون وقتا كافيا يعلمون ، يقرءون صدرا من الكتاب لا الكتاب أجمعه ، لا يعنينى هذا إلا قليلا . تعنينى لغة الترجمة .

أنقل لكم عن حديث عنوانه «تحولات الإسلام فى أفريقيا السوداء» كلمة تحولات تبدو هنا بلغة عربية واجفة الأوصال لا تؤدى بالطبع إلا لفكر شبيه بها يكاد ألا يكون له أوصال : «يشكل أتباع الإسلام فى الصحارى الجنوبية مليونا من الرعايا فى الوقت الحاضر ، (يعنى مايو ١٩٨١) أىعشرينمرة أكثر منالعربية السعودية[!] إلا أن تلك الكتلة الهائلة من المؤمنين ، الذين من الفئة المتوسطية فى القارة ، غالبا ما ينظر إليها – بتعجرف – عقائديونشتى ؛ مستشرقون أو علماء بالإسلاميات وسواد المسلمين فى سائر أنحاء العالم . وقد تجد ذاك الاحتقار فى نماذج تكونت فى العصر الذى كان فيه السود الجنوبيون يشكلون غالبية الطبقة المستعبدة الشرقية والغربية ، وهو يندرج فى جملةمن الآراء المسبقة الهدف ؛ منها تهميش أفريقيا الجنوب صحراوية » . فقرة كاملة ، لا يعنينى فيها الخلط فى الفكر ولا الإبهام فى الحقائق .

لا ، سادتى ، لا أحسب أحدا فى هذه الطائفة من الذين يترجمون لنا متهم النصيحة ، لكنى أحسب أنهم عجلون على مكان فى موكب الذكاء العربى ومن يدرى ربما كان بعضهم يريد ليثاب على كلامه هذا بمال مبذول على أيامنا هذه للقادرين وللغاوين ، لا تمييز . لن نحسن صنعا إن سكتنا ، وإن كنت لا أعرف على التحقيق ما الذى نفعل كيلا يحيق بنا سوء الذى يكتب هؤلاء ويترجمون . وأنا لا لاأظلم حين أقول إن الأقلام التى تكتب هذه النماذج ، والعقول التى وراءها ، لا يمكن لها أن تعجزنا بالذى قد تقول عن دراساتها فى المعاهد والجامعات فى أوربا وأمريكا ، هناك ما يحملنا على الظن بأنهم أخذوا من تلك المعاهد والجامعات ما استطاعت أن تعطيه لهم من معارف ، وعادوا يحملونها فى عقولهم وقلوبهم ، يحبون أن يأخذوا بيدنا للجديد فى جوف الحديد ، كما قلت . صرفتهم العجلة اللاهثة ، واحسرتاه ، أن يذكروا أن فى بحر حافظ إبراهيم صدفات تعينهم على حمل هذا الذى يحبون لنا . إن سألوا الغواص عن تلكم الصدفات . أكثرهم ما سأله .

لن أمضى فى هذه النماذج ، أرجو أن أكون سقت الذى يكفى ؛ لأدلل على دعواى ، لكنى أختم حديثى بظاهرة ، أضعها جنب هذه الظواهر التى إليها أشير ، لتعمل الذى نستطيع كيلا تذيع بيننا ، فتفسد الجهود المتأنية التى ينفقها المنذرون أنفسهم للغة .

الظاهرة التى أراها ، وأدعو إلى أن نأباها ، هى جهود بعضهم لإصلاح — أو تجديد العربية من خارج فقهها وخارج مناخها وتاريخها . على القربى القريبة بين اللغة الإنجليزية واللغات الأقدم : اللاتينية واليونانية ، يقول لنا واحد من ثقاة دارسيها : « يستحيل على لغة ، أية لغة ؛ أن تنمو نموا ينطق بحاجات أهلها فى زمانهم الذى يحيونه ، إن فرضت على تلك اللغة فرضا ، قدرات لغة أخرى أو لغات وإن كانت أسرة تلك اللغات فاتنة » . يجب أن نصف الإنجليزية بنموها هى من جوفها ، مفرداتها ، صياغة تلك المفردات ، أسلوبها مذاقها ، والإنجليزية لغة كثيرة التعقيد ، ما ينبغى لدارسيها والكاتبين بها أن يجلبوا لها تعقيدات أخرى من اللاتينية ، يرجون أن نراها بعيون تلك اللغة ، وما عيونها هى أقل حدة . تلك عيون لها طرائقها ، وللانجليزية عيون ذات طرائق ، وهى مع هذا لا تنكر أن بينها وبين اللاتينية وغيرها من اللغات مشابهة ، ننسى أكثر الأحيان أنها افتراض لا واقع ، على الدارسين أن يقفوا طويلا عندها ، يكتشفون الصحيح من تلكم الافتراضات والباطل .

إن كان هذا هو الذى بين اللاتينية والإنجليزية ، فما أبعد الذى بين العربية وتلكم اللغات ، وما أجدر الكاتبين فى فقهها وتراكيبها أن يتدبروا أمرهم طويلا قبل أن يكتبوا لنا عن طرائف اللغات الأخرى . أخاف

على علمائنا الكتاب هؤلاء أن تفتنهم الكتابات الأوربية فلا يقرؤنها ضوءا ينير عقولهم ، ويعدها لتكون أكثر اقتدارا على العيش مع مع لغتهم الأصل وانتقاعا بأصولها وبالذى خبرته عبر السنين . يحدثنا واحد من هؤلاء حديثا عن «اتهام نظرية شومسكى» ويبدو لى من دعوته الجامعة التى ينتمى إليها أنه يأخذ من المنبع نفسه؛ أى كتب شومسكى وتلامذته المكتوبة بالإنجليزية ؛ذلك لأن فى صفوفها توليديّين . وليكن هذا مرامه من بحثه ، لكنه مرام بعيد بعد أتاماً .يريد أن يحدثنا عن « النمو التوليدى » فى فقرة من فقراته الأولى ، يقول : تشهد بداية عام ١٩٧٧ على ظهور أول كتاب لشومسكى ، فى هذه الفترة الزمنية استطاع شومسكى أن يركز قواعد نظرته الألسنية التى أسماها بالنحو التوليدى ٥

هذا التركيز قد تم بواسطة نقد ذاتى متواصل لتطوير النظرية حتى تصير علما ، فالفرق شاسع بين فكرة استقلال النحو الموجودة بكتاب هياكل نحوية وفكرة وجوب تلاحم المركب المعنوى بالمركب النحو ى الموجودة بكتاب مظاهر من النظرية النحوية .

لكن فرضية شومسكى لا يمكن إثبات نجاعتها إلا بعد درس كل اللغات الإنسانية . ولذا عرفت الألسنية التحويلية بأنها فرضية استنتاجية خلافا لطريقة الهيكلية التى هى استقرائية استنتاجية . وهذه كأخواتها فقرة كاملة لا أعرف إن كان أحدنا أدرك ماذا يريد لتلك الجامعة أن تعمل بشومسكية هذا. لكن أكثرهم يطلبون إلينا الذى لا نستطيع .وإن أحببنا أن نسمع كلامهم . أتذكرون ذاك الذى طلب إلينا أن نقرأ التاريخ البشرى كله بين القرن الخامس عشر والقرن العشرين لندرك ديالكتيك «احتجاب مصر» ؟ صاحبنا هذا أكثر إيمانا بقدراتنا ، يطلب إلينا أن نعرف كل اللغات الإنسانية لندخل النحو التوليدى فى جامعاتنا .

جمال محمد احمد
عضو المجمع المراسل من السودان